الذوق الأدبي العراقي

للدكتور مصطفى جواد

للأدب العراقي سمة واضحة وخصائص لائحة ومزايا مشهورة ومقام شريف ، ولكل صقع من الأصقاع تأثير في سكانه تحدثه الوراثة والأرض والماء والهواء . وإن سلّمنا نحن هذه الحقيقة فإنا لا نغلو فيها فنقول قول فيكتور كوزان[1] العلامة الفيلسوف الفرنسي : « صِفوا لي بلاد قوم أذكرْ لكم تاريخهم » ولقد علم علماء العرب القدماء هذه المعرفة وأسلافهم سبقوهم إليها ، حتى ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطاب ، حين فتح الله البلاد على العرب كتب إلى حكيم من حكماء العصر : « إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن الأمصار فصِف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والأهوية في سكانها[2] » . فهذا الخبر — إن كان صحيحاً — يدل على تفطن العرب لأثر المسكون في الساكن منذ أول العهود الإسلامية ؛ وإن كان موضوعاً فإنه لا يخلو من كون هذا الرأي قديماً تزيد قدمه على ألف سنة

ودونك اسم باب من أبواب أحد الكتب القديمة « لُمع من ذكر الأرض وشكلها وما يغلب عليها وتأثيراتها في سكانها وما اتصل بذلك والأهوية وتأثيراتها[3] » . والعراق في صفة الأرض القديمة معدود من أقليم بابل ، وفي نعته يقول أحد سكانه : « وأما العراق فمنار الشرق وسرّة الأرض وقلبها ، إليه تحادرت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدت خواطرهم ، واتصلت مسرّاتهم فظهر منهم الدهاء وقويت عقولهم وثبتت بصائرهم . . . وفضائل العراق كثيرة لصفاء جوهره وطيب نسيمه واعتدال تربته وإغداق الماء عليه ورفاهية العيش به ... كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور ، كما يقع ذلك عن القلب ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله وأجسامهم .. وكما اعتدلوا في الجبلة

(١) Victor Cousin « ١٧٩٢ — ١٨٦٧م »

(٢) أبو الحسن المسعودي في « مروج الذهب ج ١ ص ٢٧٢ وما يليها » من طبعة مصر

(٣) أبو الحسن المسعودي أيضاً في « التنبيه والأشراف ص ٤ من طبعة مصر »

كذلك لطفوا في الفطنة والتمسك بمحاسن الأمور[1] » . فكل هذه المأثورات الدالة على أن للترب والأهوية والماء تأثيرات في السكان ، كتبت في أواسط القرن الرابع للهجرة . ومما يؤيد اختصاص العراق بخصائصه الإقليمية المؤثرة في ثقافة سكانه ومعايشهم وأخلاقهم ما ذكره سائح يسمى "بلنسي" ورد بغداد سنة « ٥٨٠ »هـ والدولة العباسية وبعد عزها وفخامتها وزمن عظمتها من حيث العدل والتدبير والسياسة والاستقلال والسعادة والنظم والرسوم ، قال : « وكنا نسمع أن هواء بغداد يُنبت السرور في القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طربا وإن كان نازح الدار مغتربا حتى حللنا بهذا الموضع ... وهو على مرحلة من بغداد . فلما نفحتنا نوافح هوائها ، ونقعنا الغلة ببرد مائها ، أحسسنا من نفوسنا — على حالة وحشة الاغتراب — دواعي الطرب، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالإياب، وهبت محركات من الأطراب، أذكرتنا معاهد الأحباب في ريعان الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف للوافد فيها على أهل وسكن :

سقى الله باب[2] الطاق صوب غمامة
وردَّ إلى الأوطان كل غريب

* * *

والذوق الأدبي هو إدراك محاسن الأديب ومعرفة دقائقه ولطائفه ونكاته ، وهو للأديب ملكة تأسيس على مقاييس المحاسن الأدبية ، وللقارئ الأدبي هو ملكة تمييز واستذاقة ، وامتلاك هاتين الملكتين قائم على الدراسة والزمان والذهن ، وبالذوق الأدبي يستطيع الإنسان قدر اللطائف الأدبية حق قدرها ، وتعرُّفَ الحكمة وإحساس لأدب الجيل ولمح التأثيرات الأدبية في النفوس ، وتمييز المستحسن من المستكره من الأدب بالإضافة[3] إلى ذوي الأكثرية من أهل الأدب ، ومعرفة ما يلائم الطباع من الآثار الأدبية ، والغوصَ على النكات

(١) المرجع المذكور « ص ٢٧١ »

(٢) باب الطاق ، في بغداد القديمة ، كانت محلة كبيرة بالجانب الشرقي، والطاق هو طاق أسماء ، وكانت المحلة من أحسن الخطط القديمة بين الرصافة (مدفن الملك فيصل الأول وما حوله في أيامنا) ونهر المعلى (بغداد الشرقية في عهدنا) وكان الطاق عظيما في دار كبيرة وكان عنده مجلس الشعراء في أيام الرشيد ، ومحلة باب الطاق اليوم ما بين كرادة المعظم وجنوبي مدفن الملك فيصل الأول وقد نسي الاسم

(٣) بالاضافة إلى كذا ، معناه « بالنسبة إليه والقياس إليه » ويستعمله المترجمون بمعنى « مضافا إلى كذا » وذلك خطأ عظيم

والدقائق وعلم سُبُل الشعور المستقيمة ، فمحروم الذوق الأدبي لا يدرك مثلا قول امرئ القيس :

مكرٍّ مفرٍّ مقبـــل مُدبر معاً

كجلمود صخر حطه السيل من عل

ولا يعلم أن المراد به « معاً » هو أن الكر والفر والإقبال مجتمعة في قوة الفرس لا في فعله المقترن بالزمان ، وذلك لأن المشتقات في العربية هي للنعوت والأوصاف لا للأفعال والأحداث ، ولأن « معاً » للمصاحبة المطلقة ، لا للزمان البحت ، فلذلك يُقال : « جاءنا مع العصر » بجعله مصاحباً للعصر في المجيء . ومن حرم المقياس عدم الإحساس

أجل تضافرت الآثار والأخبار على أن الذوق الأدبي العراق حكيم بارع كريم ، ألا ترى أن أبا علي محمد بن اسماعيل القاضي الطوسي ، قاضي طوس المتوفى سنة « ٤٥٩ هـ » كان يلقب بالعراقي لظرافته وطول مقامه ببغداد[1] ، وما نشك في أن الظرافة العراقية هي سبب التلقيب وإن كان لقبه « البغدادي » لا العراقي لأنه أطال الإقامة ببغداد . وروى الإمام أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة « ٣٨٤ » أن محمد بن أبي العتاهية قال : « أنشدت أبي أبا العتاهية شعراً من شعري ، فقال لي : أخرج إلى الشأم ، قلت : لِمَ ؟ قال : لأنك لست من شعراء العراق ، أنت ثقيل الظل مظلم الهواء جامد النسيم[2] » وقال العلامة أحمد بن محمد الفيلسوف المؤرخ الملقب بمسكويه : « إذا أنصفنا النزمنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف ، والمأخذ القريب ، والسجع الملائم واللفظ الموفق والتأليف الحلو والسبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة في السمع ، الخالبة للقلب ، العابثة بالروح ، الزائدة في العقل المشملة للقريحة ، الموقوفة على فضل الأدب الدالة على غزارة المتعرف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف[3] »

وقال أبو حيان ينمي على الصاحب بن عباد أسلوبه : « وطباع ما الجبلي مخالف لطباع العراقي ، يثب مقارباً فيقع بعيداً ، ويتطاول صاعداً فيتقاعس قعيداً[4] »

والظاهر هو أن ظروف أهل العراق في الأخلاق والأدب أصبح في العصور الإسلامية كالحقائق المجمع عليها المتخذة مقاييس وعبرا ؛ فهذا أبو منصور عبد الملك الثعالبي يقول في نعت أدب أبي العباس محمد ابراهيم الباخرزي الكاتب إنه كتب اليه بيتين ، فأجابه الباخرزي بأبيات منها :

استودع الله الحفيظ حبيبا ... يحكي إذا نظم القريض حبيبا

متطبعاً طبع الشآم مبرزا ... متدرعاً ظرف العراق أديبا[1]

وإذ لم يكن بد من التخصيص المؤدي إلى الاختصاص نذكر أن جماعة من الأدباء خصصوا أكثر الظرف العراق والإبداع الأدبي بدجلة — أعني سكان بلادها — ومن ذلك ما قاله أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي يصف أدب أبي القاسم عبد الواحد[2] ابن المطرز الشاعر البغدادي بعد إيراده له هذه الأبيات :

عسى طيف اللمـــة بالنعيم ... يلم بنا على العهـــد القديم

أرقت له أماطل فيـــه هماً ... يلازمني ملازمة الغريم

لعل خيال ذات الخال يسري ... فينقع غلة النضـــو السقيم

وكيف ينام عشـق تغلبي ... تؤرقه ظباء بني تميم ؟

قال : « هذا لعمري الشعر الذي ورد دجلة فارتوى من زلالها ، وروّح بشمال بغداد فرفل في سربالها ، واستفاد الصّبحة من اعتلالها[3] » ولقد حكى الباخرزي في هذا الوصف عن شعور شعره وإحساس أحسّه ولون أدب ارتوى من غميره العذب ، حتى امتلأ منه . وتفصيل ذلك أنه لما ورد بغداد مدح الإمام القائم بأمر الله الخليفة العباسي ، بقصيدة صدّر بها ديوانه منها :

عشنا إلى أن رأينا في الهوى عجباً ... كل الشهور وفي الأمثال عش رجبا

أليس من عجب أني ضحى ارتحلوا ... أوقدتُ من ماء دمعي في الحشا لهبا ؟

وأن أجفان عيني أمطرت ورقا ... وأن ساحة خدي أنبتت ذهبا ؟

وإن تلهّبَ برق من جوانبهم ... توقد الشوق من جنبيّ والتهبا

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص ٢٤٧ »

(٢) الموشح ص ٣٧٥

(٣) هذا قول عزاه إليه أبو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٦٤

(٤) المرجع المذكور ص ٦٢

(١) تتمة اليتيمة ج ٢ ص ٣٦

(٢) هكذا ورد اسمه في النسخة المطبوعة ص ٧٩ وفي إحدى النسخ المخطوطة « دار الكتب الوطنية بباريس مخط رقم ٣٣١٣ ور ٦٦ » وللدمية نسختان أخريان بباريس أرقامهما « ٥٩٢٦ و ٥٢٥٢ » وسماه الثعالبي في تتمه اليتيمة « عبد الرحمن » ج ١ ص ٥٧ »

(٣) الدمية ص ٨٠

فاستهجن البغداديون شعره وقالوا : « فيه برودة العجم » فانتقل الباخرزى إلى الكرخ[1] وسكنها وخالط فضلاءها وسوقتها مدّة وتخلّق بأخلاقهم واقتبس من اصطلاحاتهم ثم أنشأ قصيدته التى أولها :

هبّت على صبا تكاد تقول :
إنى إليك من الحبيب رسول

سكرى تجشمت الرُّبا لتزورنى من علتى وهبوبها تعليل

فاستحسنها البغاددّة وقالوا : تغير شعره ورق طبعه[2] » .

ولا يفك الأديب يلمح هذه الإشارات ويقرأ أمثال تلك العبارات ويستحيل هذه الحال فى كثير من الكتب الأدبية ، وتراجم الأدباء ، فالثعالبى لم يومئ إلى ذلك فى موضع واحد — أعنى الموضع الذى أرّخ خبره — وإنما قال أيضاً فى ترجمة أبى الفضل محمد بن عبد الواحد التيمى البغدادى : « وله شعر الأديب الظريف الذى شرب ماء دجلة وتغذى بنسيم العراق[3] » ونحن لا نرى حقاً تسمية الخروج عن الأسلوب العراقى أو الأسلوب البغدادى خاصةً « برودة » وإنما هو « أثر الانتقال » و « أمارات العبور » من الفارسية إلى العربية ، فالمؤاخذة أكثر ما تكون فى « الأسلوب » ولا يستطيع الفارسى وإن بلغ الذروة من صحة التركيب فى العربية ، أن يمتلك زمام مجاز العربية وبلاغتها الأخر . ثم إن للشعر العربى طابعاً خاصاً به وسمةً دالةً عليه ، فالفارسى على إجادته اختيار المعانى وإحسانه تزاويق التشبيه وزخارف الاستعارة ، لا يخلص إلى أسلوب عربى لاحب ، قال نقلة الأخبار إن الإمام أبا العباس أحمد بن الحسن الناصر لدين الله العباسى أسد بنى العباس وسياسيهم الأعظم وأديبهم البارع ومحدثهم الماهر لما سمع قول تاج الدين الطرقى الاصفهانى :

إذا ما رآنى العاذلون وغردت حمائم دوح أيقظتها النسائم[4]
يقولون مجنون جفته سلاسل ومحسوس حىّ فارقته التمائم

تعجّب من ذلك وقال : « ما ظننت أن أحداً من العجم يصلُ كلامهُ إلى هذا الحد » وبعث إليه بخلعة[1] . وهذا الخبر يدلنا أيضاً على ما بلغه الإمام الناصر لدين الله من إدراك لمحاسن الأدب العربى ومعرفة لدقائقه ولطائفه وبارعه ورائعه .

وقال أحد المؤرخين العراقيين : « سمعت أبا عبد الله محمد بن يوسف الأرجانى ببغداد يقول : « قال لى إنسان بسمرقند — وقد جرى ذكر أهل العراق ولطافة طباعهم ورقة ألفاظهم — كفى أهل العراق أن منهم من يقول :

تنبّهى يا عذبات الرند كم ذا الكرى اهبت نسيم نجد ؟

وكرر البيت تعجباً من لطافته وعذوبة لفظه ، وهو لابن المعلم [أبى الغنائم محمد بن على بن فارس الواسطى الهرثى المتوفى سنة ٥٩٢] مبدأ قصيدة مدح بها إنساناً يعرف بهندى ، بنى القصيدة على هذه القافية لأجل اسمه[2] .

ولقد صدق هذا السمرقندى فان هذا البيت من قصيدة تجلّت فيها محاسن الصناعة وبانت عليها بوارق البراعة ، وهى فى مدح الأمير هندى الكردى أحد الأمراء فى أواسط القرن السادس للهجرة ، كان فى خدمة الإمام المقتفى لأمر الله الخليفة العباسى مجدد دولة بنى العباس ، وقال فى ديباجتها الغزلية :

تنبهى يا عذبات الرند كم ذا الكرى هبت نسيم نجد ؟
مر على الروض وجاسحَراً يسحبُ بردَىْ أرج وبرد
حتى إذا عانقتُ منه نفحةً عاد سموماً والغرامُ يعدى
واعجباً منّى أستشفى الصبا وما تزيد النار غير وقد
أعال القلب ببان رامة وهل ينوب غصُن عن قد ؟
وأسأل الربعَ ومَن لى لو وعى رجع كلام أو سخا برد
أأقتضى النوح حمامات اللوى هيهات ماعند اللوى ماعندى؟
كم بين خال وجوٍ وساهر وراقد وكاتم ومبدى ؟
ما ضر من لم يسمحوا بزورة لو سمحت طيوفهم بوعد ؟
بانوا فلا دار العقيق دارهم دار ولا عهد الحمى بعهد
آه من البعد ولو رفقم ما ضرنى تأوهى للبعد
عشق لا ما عشقته عذرة قبلى وبى يستن بى من بعدى
تعلة وقوفنا بطلل وضلة تسآلنا لصلد
إن نكب الغيث الحمى وضن أن ينير فى عراصها ويسدى

(١) محلة الكرخ فى زمن الباخرزى المتوفى سنة ٤٦٧ من المحلات المستقلة التى هى كالمدينة ، وكانت فى الجانب الغربى من المشهد المعروف بمشهد النطفة وهذا المشهد لا يزال قائما بين الكاظمية وبغداد ، أما أرض الكرخ فصحراء

(٢) ياقوت الحموى فى « معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٢٤ طبعة مرجليوس الأولى »

(٣) تتمة اليتيمة جـ ١ ص ٦٣

(٤) الظاهر أن السائم جمع نسيم كأفيل وأفائل وتبيع وتبائع وضمير ضمائر ونظير ونظائر

(١) محيى الدين عبد القادر العيدروسى فى النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ٢٩٣ — ٤

(٢) أبو عبد الله محمد بن سعيد البريقينى فى « ذيل تاريخ بغداد » من الكتب الخطية

سفته عيني ورمته أضلعي   بوابل وبارق ورعد
طرف تجف المزن وهووا كف   كأنما جفناه كف هندي(1)

وأقر أيضاً بجمال الأسلوب العراقي في الأدب أدباء مشاهير من أهل الأندلس ، فان ابن جبير الرحالة الأديب المشهور ، المتقدم الذكر حضر — أيام دخوله بغداد في سنة ٥٨٠ — مجلس (أبي الفرج ابن الجوزي الحنبلي) فقال :

« وفي أول مجلسه أنشد قصيداً نير القبس ، عراقي النفس ، في الخليفة الناصر أوله :

في شغل من الغرام شاغل   من هاجه البرق بسفح عاقل
بأكلات الله كوني عوذة   من العيون للامام الكامل

فرغ من إنشاده وقد هز المجلس طرباً(2) » . فقوله إن ذلك الشعر عراقي النفس يدل على اشتهار النفس الشعري العراقي في الأندلس فضلاً عن المشرق . وهذه الخصائص الأدبية واللطائف الشعرية . لم تكن مقصورة على الخاصة من العراقيين دون العامة ، ألا ترى أحد المؤرخين يقول : « ومن خالط أهل بغداد وعلماءها عرف فضلهم ولطفهم ؛ ومن تأمل لطافة العوام بها في مجونهم وحديثهم وإشاراتهم التي لا يفهمها أكثر علماء غيرها من البلاد حتى أن فيهم من يقول الشعر المسمى (كان وكان) فيأتي بمعان لا يقدر عليها فحول الشعر تبين له فضلهم ولطافة أخلاقهم(3) » .

وإن من غير العراقيين من اعترف بهذه الخصائص الأدبية وأسجل بها على نفسه كما يسجل القاضي بالحكم ويثبته في المحضر ، وهناك لا تجد أنبل من هذه النفوس العلية والطباع المرضية التي من عادتها الإقرار بالحقيقة والإذعان للواقع مع ما فيه من هضم الجبلة وزم النفس عن مرامها وتواضع هو في مقياس الفضائل ترفع ، ومن أولئك النبلاء الأدباء أبو سعد علي(4) ابن محمد بن خلف الهمذاني ؛ وفي ذلك قال :

فدًى لك يا بغداد كل مدينة
من الأرض حتى خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها
وسيرت خيلي بينها وركابيا

فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً   ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً   وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل: لو كان ودك صادقاً   لبغداد لم ترحل فكان جوابيا:
يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم   وترمي النوى بالمقترين المراميا(1)

روى هذه الأبيات أبو بكر الخطيب عن أبي القاسم علي بن المحسن القاضي التنوخي ورواها التنوخي عن ناظمها سماعاً بحضوره وإنشاداً من فيه ، ومن طريف ما نذكر هنا أن أبا حيان التوحيدي لما مدح الوزير أبا عبد الله بن سعدان العارض ، ذكر له أنه ممن يعتد به في مقامات المساجلة ومواطن المفاخرة وأنه يكايد به أصحابه ببغداد ويقول لهم : هل كان في حسبانكم أن يطلع عليكم من المشرق من يزيد ظرفه على ظرفكم ، ويبعد بعلمه عن علمكم ، ويبرز هذا التبريز في كل شيء تفخرون به على غيركم ؟ »(2)

وآخر ما ننقل للقارئ شهادة أديب كبير وعلامة خطير ومنشئ بارع وشاعر مجيد وكاتب مجود ومؤرخ ذي يد باسطة في تحرير التراجم والأخبار ، وهو عماد الدين الاصفهاني فانه قال في ترجمة أبي الفتح محمد بن محمد(3) بن عمر الأديب الكاتب : « لم يكن في عصرنا أكتب منه ، تبحر في أدبه ، وتطرف في مذهبه ... وله شعر كثير وديوان كبير ، ولم يخلف له نظيراً ... وعلى نظمه طلاوة بغدادية وحلاوة عراقية فمنه .

قام بالعذر في هواك العذار   فسلوي عن حسن وجهك عار
أدلال هذا التعنت أم أنـ   ـت كما قيل خائن غدار ؟

بغداد — **مصطفى جواد**

(1) الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٠٢ » .
(2) أبو حيان في « الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨٨ »
(3) ولد سنة « ٤٨٤ » وتوفي سنة « ٥٥٧ » .

(1) عماد الدين الأصفهاني في جريدة القصر وجريدة العصر (من الكتب الخطية)
(2) تقييد السياحة لابن جبير ص ١٩٤ طبعة مصر
(3) كمال الدين ابن الفوطي في تلخيص مناقب بغداد ص ٣١
(4) ورد في « تاريخ بغداد للخطيب البغدادي » ج ١ ص ٤٠٢ » بصورة « محمد بن علي بن محمد بن خلف » وليس بصحيح ، فان الثعالبي ذكره هكذا في اليتيمة « ٣ : ٢٧٥ » من طبعة الصاوي ونقل السبكي « فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٥ » ترجمته من كتب تاريخ بغداد مع أسماء « علي بن محمد » وذكر أن وفاته كانت سنة ٤١٤ وذكره بهذه الصورة ياقوت الحموي في مادة « سابور خواست » من معجم البلدان